الأوبئة التي أصابت الأمة الإسلامية

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

dorarnet @dorarnet @dorartv dorarrnet

الأوبئة التي أصابت الأمة الإسلامية

مِن سُننِ اللهِ تعالى الكونيَّةِ المتضمِّنةِ لكثيرٍ مِن الحِكَم الشرعيَّة: وُقوعُ الابتلاءات بالأوبئةِ والأمراضِ العامَّةِ؛ ليُظهرَ اللهُ سُبحانَه قُدرتَه للعِباد، وليريَهم آياتِه في الآفاقِ حتى يتبيَّن لهم أنَّه الحقُّ، وليُوقِظَ النَّاسَ كلَّما غفَلوا أو تغافلوا، أو فسَدوا وأفسَدوا، ويُذيقَهم بعضَ الذي عَمِلوا؛ ليعودوا إلى ربِّهم ويَرجِعوا إلى طريقِ الحقِّ والدِّين، كما قال جلَّ وعلَا: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: ٤١].

وما تُعايِشُه البشريةُ في هذه الآونةِ واحدٌ مِن هذه الأوبئةِ والابتلاءاتِ التي أظهرتْ ضَعْفَ كلِّ النَّاسِ وكلِّ الأُمم -على قُوَّتها وتقدُّمها الحَضاريِّ- أمامَ قُدرةِ اللهِ القويِّ العَزيزِ العليِّ الكبيرِ سُبحانَه.. مع أنَّ هذا الوباء (كورونا) لا يُعَدُّ شيئًا بالنسبةِ إلى كَثيرٍ من الأوبئة والأمراض الفتَّاكةِ التي مرَّتْ على البَشريَّة والأُمَّةِ المسلِمةِ قبْل ذلِك، وحصَدتْ أرواحَ الملايين!

وفي هذا الملفِّ -من الموسوعة التاريخية بالموقع- بيانٌ لبعض الأوبئة التي مرَّت على الأُمَّة، وكثُر فيها الموتُ كثرةً بالغة؛ حتى يعلمَ أبناءُ هذا الجيل قدْرَ هذا الوَباءِ الحاليِّ في الأوبئةِ السَّابقة، ويكونَ مواساةً للناس جميعًا ولكلِّ مُسلِمٍ خصوصًا، ويَتفطَّنوا إلى سُنَن الله تعالى في كونِه، ويتأمَّلوا في حِكَمِ ذلِك، ويَستفيدوا منها؛ فالمسلِمُ الصادِقُ الفَطِنِ دائمًا ما يَستخرِجُ مِن المِحَنِ كثيرًا من المِنَحِ الإلهيَّةِ،

فيُحسِنُ الاستفادةَ منها، ويَنتقِلُ من العُسرِ إلى اليُسرِ؛ فالمحنةُ تُذكِّرنا باللهِ الخالقِ القادِرِ، والعاقِلُ مَن يُعيد حساباتِه، فيعودُ إلى ربِّه عَودًا حميدًا، ويتوبُ توبةً نَصُوحًا، ويلتزمُ بما أمَر اللهُ به، ويبتعَدُ عمَّا نهى عنه؛ حتَّى يرفعَ اللهُ برحمته هذا البلاء والوباء.

❁ ففي عام ٤٤٩هـ وقعَ وباءٌ عظيمٌببغدادَ وغيرِها مِن البلادِ، بحيث خَلَتْ أَكثرُ الدُّورِ وَسُدَّتْ على أَهلِها أَبوابُها بما فيها، وأَهلُها مَوتى فيها، ثم صار المارُّ في الطَّريقِ لا يَلقى الواحدَ بعدَ الواحدِ، وأكلَ النَّاسُ الجِيَفَ والنَّتنَ؛ مِن قِلَّةِ الطَّعامِ، ووُجِدَ مع امرأةٍ فَخِذُ كَلْبٍ قد اخْضَرَّ، وشَوَى رَجلٌ صَبِيَّةً في الأَتُونِ وأَكَلَها! وسَقطَ طائرٌ مَيِّتٌ مِن حائطٍ فاحْتَوَشَتْهُ خمسُ أَنفُسٍ فاقتسموهُ وأَكلوهُ! قال ابنُ الجوزي يَصِفُ خبرَ هذا الوباءِ: «في جُمادى الآخِرة: وَرَدَ كِتابٌ مِن تجَّارِ ما وَراء النَّهرِ: قد وقع في هذه الدِّيارِ وَباءٌ عَظيمٌ مُسرِفٌ زَائِدٌ عن الحَدِّ، حتى إنَّه خَرجَ من هذا الإقليمِ في يَومٍ واحدٍ ثمانيةَ عَشَرَ ألفَ جِنازةٍ، وأُحصِيَ مَن مات إلى أن كُتِبَ هذا الكِتابُ فكانوا ألفَ ألفٍ وستَّمائةِ ألفٍ وخمسينَ ألفًا، والنَّاسُ يَمُرُّون في هذه البلادِ فلا يَرونَ إلَّا أسواقًا فارغةً، وطُرقاتٍ خاليةً، وأبوابًا مُغلقةً، حتى إنَّ البَقرَ نَفَقَت. وجاء الخَبرُ من أذربيجان وتلك البلادِ بالوباءِ العظيمِ، وأنَّه لم يَسْلَمْ من تلك البلادِ إلا العَددُ اليَسيرُ جدًّا. وَقعَ وباءٌ بالأهواز وبُوَاط وأَعمالِها وغيرِها، حتى طَبَقَ البلادَ، وكان أكثرَ سَببِ ذلك الجوعُ، كان الفقراء يَشوون الكِلابَ، ويَنبُشون القُبورَ، ويَشوون المَوتى ويأكلُونهم! وليس للناسِ شُغلٌ في اللَّيلِ والنَّهارِ إلَّا غَسلُ الأمواتِ وتَجهيزُهُم ودَفنُهُم، فكان يُحفَرُ الحَفِيرُ فيُدفَنُ فيه العشرون والثلاثون، وكان الإنسانُ بينما هو جالس إذ انشَقَّ قَلبُه عن دَمِ المُهْجَةِ، فيَخرُج منه إلى الفَمِ قَطرةٌ فيموتُ الإنسانُ مِن وَقتِه، وتاب النَّاسُ، وتَصدَّقوا بأَكثرِ أَموالِهم، فلم يَجِدوا

أحدًا يَقبَلُ منهم، وكان الفَقيرُ تُعرَض عليه الدَّنانيرُ الكثيرة والدَّراهِم والثِّياب، فيقولُ: أنا أُريدُ كِسْرةً، أُريدُ ما يَسُدُّ جُوعي، فلا يجِدُ ذلك! وأَراقَ النَّاسُ الخُمورَ وكَسَروا آلاتِ اللَّهوِ، ولَزِموا المساجِدَ للعِبادةِ وقِراءةِ القُرآن، وفي يومِ الأربعاءِ لِسَبعٍ بَقِينَ مِن جُمادى الآخِرةِ احتَرقَت قَطِيعةُ عيسى، وسُوقُ الطَّعامِ، والكَنِيسُ، وأَصحابُ السَّقْطِ، وبابُ الشَّعيرِ، وسُوقُ العَطَّارين، وسُوقُ العَروسِ، والأَنماطِيِّين، والخَشَّابين، والجَزَّارين، والتَّمَّارين، والقَطيعَةُ، وسُوقُ مُخَوَّل، ونَهرُ الزُّجاجِ، وسُوَيْقَةُ غالبٍ، والصَّفَّارين، والصَّبَّاغين، وغَيرُ ذلك مِن المواضع، وهذه مُصيبةٌ أُخرى إلى ما بالنَّاسِ مِن الجُوعِ والغَلاءِ والفَناءِ، فضَعُفَ النَّاسُ حتى طَغَت النَّارُ فعَمِلَت أَعمالَها، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون».

❁ وفي عام ٥٩٧هـ تعَذَّرت الأقواتُ بديار مصر، وتزايدت الأسعارُ، وعَظُم الغلاءُ، حتى أكل النَّاسُ المَيْتاتِ، وأكَلَ بَعضُهم بعضًا، وتَبِعَ ذلك فَناءٌ عظيم، وابتدأ الغلاءُ من أوَّلِ العام، وتمادى الحالُ ثلاثَ سنين متواليةً، لا يَمُدُّ النيلُ فيها إلَّا مدًّا يسيرًا، حتى عَدِمَت الأقواتُ، وخرج من مصرَ عالَمٌ كثيرٌ بأهلِيهم وأولادِهم إلى الشام، فماتوا في الطُّرُقاتِ جُوعًا، وشَنُع الموتُ في الأغنياء والفقراء، وأُكِلَت الكلابُ بأَسْرِها، وأُكِلَ من الأطفال خلقٌ كثير، ثم صار الناسُ يحتالُ بعضُهم على بعض، ويؤخَذُ مَن قُدِرَ عليه فيُؤكَلُ، وإذا غَلَب القويُّ ضعيفًا ذبَحَه وأكَلَه، وفُقِدَ كثيرٌ مِن الأطبَّاءِ؛ لكثرةِ مَن كان يستدعيهم إلى المرضى، فإذا صار الطبيبُ إلى داره ذبَحَه وأكله! وخَلَت مدينةُ القاهرة ومِصرُ مِن أكثَرِ أهلِها، وصار من يموتُ لا يجِدُ من يواريه، فيصيرُ عِدَّةَ أشهر حتى يؤكَلَ أو يَبْلَى، واتَّفَق أنَّ النيل توقَّفَ عن الزيادة في سنة سِتٍّ وتسعين، فخاف النَّاسُ، وقَدِمَ إلى القاهرةِ ومِصرَ من أهل القُرى خلقٌ كثير؛ فإنَّهم لم يجدوا شيئًا من القُوتِ؛ لا الحبوبَ ولا الخضرواتِ، وكان الناس

قد فَنُوا بحيث بَقِيَ من أهل القرية -الذين كانوا خمسمائةٍ- نَفَرٌ؛ إمَّا نفرانِ أو ثلاثة، فلم تجِدِ الجسورُ من يقوم بها، ولا القُرى من يَعمَلُ مصالحَها، وعَدِمَت الأبقارُ، وجافت الطرقاتُ بمصر والقاهرة وقُراهما، ثم أَكلَت الدودةُ ما زُرِعَ، فلم يوجَدْ مِن التَّقاوي ما يُمكِنُ به رَدُّه، ولم يبقَ بمصرَ عامِرٌ إلا شَطُّ النيل، وكانت أهلُ القرى تخرج للحَرثِ فيموتُ الرجلُ وهو ماسِكٌ المحراثَ، ثمَّ وقع في بني عنزة بأرضِ الشراةِ- بين الحجاز واليمن- وباءٌ عظيمٌ، وكانوا يسكُنونَ في عشرين قريةً، فوقعَ الوباءُ في ثماني عَشرةَ قريةً، فلم يبقَ منهم أحدٌ، وكان الإنسانُ إذا قَرُب من تلك القرى يموتُ ساعةَ ما يقاربُها! فتحاماها النَّاسُ، وبقيت إبلُهم وأغنامُهم لا مانِعَ لها، وأمَّا القريتانِ الأُخْريان فلم يمُتْ فيهما أحدٌ، ولا أحسُّوا بشيءٍ مِمَّا كان فيه أولئك! فسُبحانَ مُقَدِّرِ الأقدارِ!

❁ وفي عام ٦٩٤هـ وقع بديار مصرَ كُلِّها وباءٌ عظيم في القاهرة ومصر، وتزايدَ حتى كان يموتُ فيهما كلَّ يومٍ ألوفٌ، ويبقي الميّتُ مطروحًا في الأزِقَّةِ والشوارع ملقًى في الممرَّاتِ والقوارع اليومَ واليومينِ لا يُوجَدُ من يدفِنُه؛ لاشتغالِ الأصحَّاء بأمواتِهم، والسُّقَماءِ بأمراضهم، وقصُرَ مَدُّ النيلِ؛ فتزايد الغلاءُ، واشتَدَّ البلاء، وأجدَبَت بلادُ بُرقةَ أيضًا، وعمَّ الغلاءُ والقَحطُ ممالِكَ المشرقِ والمغرب والحجاز، وتزايد موتُ النَّاسِ حتى بلغت عِدَّةُ من أُطلِقَ من الديوانِ في شهرِ ذي الحِجَّةِ سبعةَ عَشَرَ ألفًا وخمسمائة، سوى الغُرَباء والفُقَراء، وهم أضعافُ ذلك، وأكلَ النَّاسُ مِن شِدَّةِ الجوع جثثَ الموتى والكِلاب والقِطاط والحَمير، وأكل بعضُهم لحمَ بعضٍ! وأنافَ عدَدُ مَن عُرِفَ بموته في كلِّ يومٍ ألف نفس، سوى من لم يثبُت اسمُه في الديوان، فلما اشتَدَّ الأمرُ فَرَّق السلطانُ الفقراء على أربابِ الأموالِ بحَسَبِ حالِهم.

❁ وفي شهر محرم من عام ٨٤١هـ كثُرَ الوباءُ بالطاعونِ بحَلَب

وأعمالها، حتى تجاوزت عِدَّةُ الأموات بمدينة حَلَب في اليوم مائةً، وفي شهر ربيع الآخر شَنُعَ الوباء بحَماة، حتى تجاوزت عِدَّةُ الأموات عندهم في كُلِّ يومٍ ثلاثمائة إنسانٍ، ولم يَعهدوا مثل ذلك في هذه الأزمنةِ، وفي شهرِ جُمادى الأولى فشا الموتُ في الناس بمدينة حَماةَ وأعمالِها، حتى تجاوز عِدَّةُ من يموتُ في كُلِّ يومٍ مائةً وخمسين إنسانًا، وفي شهرِ جُمادى الآخِرة وقع الوباء بدمشق، وفشا الموتُ بالطَّاعونِ الوَجِيِّ، ثم كَثُرَ بدمشق، وشَنُع بحلب وأعمالها، فأظهر أهلُها التَّوبةَ، وأغلقوا حاناتِ الخَمَّارين، ومنعوا البَغايا الواقفاتِ للبِغاءِ، والشَّبابَ المُرصدينَ لعَمَلِ الفاحشةِ، بضرائِبَ تُحمَلُ لنائِبِ حلب وغيره من أرباب الدولة؛ فتناقصَ الموتُ، وخفَّ الوباء، حتى كاد يرتفِعُ، ففَرِحَ أهلُ حَلَب بذلك، وجعلوا شُكْرَ هذه النِّعمةِ أن فتَحوا الخمَّاراتِ، وأوقفوا البغايا والأحداثَ للفَسادِ بالضرائبِ المقرَّرةِ عليهم! ولا حول ولا قوةَ إلَّا بالله! فأصبحوا وقد مات من الناس ثمانمائةِ إنسان، واستمرَّ الوباء الشَّنيعُ والموتُ الذَّريعُ فيهم رَجَبًا وشَعبانَ وما بَعْدَه! ثم شَنُعَ الوباء بدمشق في شعبان، ومات من الغرباء -الذين قَدِموا من بغدادَ وتَبْريزَ والحَلَّة والمشهد وتلك الديار؛ فرارًا مِنَ الجَورِ والظُّلمِ الذى هنالك، وسكَنوا حَلَب وحَماة ودمشق- عالمٌ عظيم لا يحصُرُهم العادُّ؛ لكثرتِهم!

❁ وفي شهر ذي القَعْدة من عام ٧٤٦هـ وقع وباءٌ وموتٌ عظيم في مكَّةَ، وهو الوباء المعروف بـ أبو زويعة (العقاص)، وأوَّل ما وقع فيها قبل قدومِ الحاجِّ، ومات منه فئامٌ مِن الناس، ثم ارتفع عنها مع دُخولِ ذي الحجَّةِ، فلمَّا كان يومُ النَّحرِ حلَّ الوباء والموت العظيم ثانيًا في الحاجِّ وغيرِهم. وقيل: لم يبقَ من حاجِّ الشامِ إلا قَدْرُ ثُلُثِه، ومن حاجِّ أهلِ نجدٍ مِن كلِّ بلدٍ هلك بعضُهم نِصْفَه، وبَعْضُهم أقل أو أكثر، وأُحصِيَ من مات من أهل مكة، فكانوا سِتَّةَ عَشَرَ ألفَ نَفسٍ،

ولَمَّا قَدِمَ الحاجُّ الشَّاميُّ المدينةَ بالليل راجعًا من مكَّةَ وقع الموتُ في النَّاسِ وقتَ السَّحَرِ، وحلَّ بهم أمرٌ عظيمٌ، فخرج أهلُ المدينةِ بالنِّساءِ والأطفالِ، وتضرَّعوا في حَرَمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حتى رفَعَ اللهُ عنهم البلاء.

ورَغمَ كُلِّ هذه المِحَنِ والبلايا فإنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ قد عافى هذه الأمَّةَ، فمَرَّت تلك الأوبئةُ وزالت بفَضْلٍ مِنَ اللهِ ورحمةٍ، فمتى عَرَف النَّاسُ طريقَ رَبِّهم وعادوا إليه وتضَرَّعوا وتابوا، رفَعَ اللهُ عنهم، وتقَبَّل منهم، وعَوَّضهم خيرًا؛ فهو سبحانَه رؤوفٌ رحيمٌ.